الترجمة فى مجال الدراسات التاريخية : أفكار وملاحظات أولية

د. قاسم عبده قاسم(*)

الترجمة عملية فكرية تنطوى على قدر كبير من التضحية وإنكار الذات، وربما تبدو هذه العبارة صادمة للوهلة الأولى؛ ولاسيما بالنسبة لمن لم يمروا بتجربة الترجمة؛ ولكن من يمنح نفسه فرصة التأمل الهادى فى مغزى هذا العبارة سوف يكتشف أننا لم نتجاوز الحقيقة كثيراً أو قليلاً. وتبدو هذه الحقيقة أكثر وضوحاً فى مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية بشكل خاص؛ وفى مجال الإبداع الأدبى بشكل أكثر خصوصية. والمدهش أن هناك عدداً كبيراً من الناس لا يرون أن هذه الحقيقة تنطبق فى مجال التاريخ بقدر ما تنطبق فى مجالات الإبداع الأدبى والفلسفة. إذ أن الأدب والفن والفلسفة والتاريخ تحمل رؤية للذات وللكون، وللآخر بشكل ما. ولذلك فإننا لا يمكن أن نقسم الشعراء والأدباء والفنانين إلى فئات، ولا ينبغى أن نفعل ذلك. وهو ما يصدق أيضاً على المؤرخين. فالشاعر الفرد، مثلاً، عالم قائم بذاته بكل خصائصه الفنية والفكرية والإبداعية، ولا يمكن أن نضعه فى "فصيل" من الشعراء نقول إنهم متماثلون، أو متشابهون، وكذلك الفنان والفيلسوف، والمؤرخ.

والمقصود بالمؤرخ هنا ليس من يعانى "كتابة" التاريخ، أو "البحث التاريخى"، أو حتى تدريس التاريخ – فهذه كلها مهنة يمكن بقليل من التدريب والإعداد أن يقوم بها أى فرد مؤهل. ولكن المؤرخ هو ذلك الشخص الذى يحاول العثور على إجابة لسؤال حَيَّرَه أو أدهشه؛ ومن ثم فهو صاحب رؤية "يقرأ" من خلالها الأحداث التاريخية. ولعل هذا هو السبب فى أن الذين "اشتغلوا" بالتاريخ على مرِّ العصور كانوا كثرة؛ ولكن من يستحق منهم لقب "المؤرخ" كانوا "قلة" باستمرار. ومهنة "البحث" ، أو "التدريس" لا يمكن أن تتساوى مع "موهبة" قراءة الأحداث التاريخية.

وتقودنا هذه المقدمة، بالضرورة، إلى العودة للعبارة التى بدأنا بها هذه الورقة؛ فالمترجم فى المجالات الإنسانية والاجتماعية يحبس نفسه بالضرورة فى عقل "آخر" هو المؤلف ومن أجل "آخرين" هم القراء الذين سوف يقرأون النص فى ترجمته. وفى سبيل نقل أفكار المؤلف إلى القراء. ويمرُ المترجم بعملية مكابدة شديدة فى سبيل الحفاظ على روح النص الأصلى؛ وهنا يحدث كثيراً أن يجد المترجم نفسه بعد تمام الترجمة، وقد خانته الترجمة، فقد نقل المعنى وقتل

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى. كلية الآداب جامعة الزقازيق.

الروح. وربما تكون الترجمة دقيقة وصادقة وأمينة ولكنها فى أحيان كثيرة تكون مثل إمراة جميلة حقاً؛ ولكنها خائنة.

وتتجلى هذه الحقيقة واضحة فى مجالات الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ. إذ أن الترجمة ليست متوقفة على إجادة اللغتين؛ المنقول منها والمنقول إليها فحسب، كما أنها ليست رهنا بمعرفة المترجم لموضوع الترجمة فقط؛ وإنما هى فوق هذا وذاك عملية إدراك لروح النص التى لايمكن التعبير عنها، فى الشعر مثلا، سوى من خلال لغة النص الأصلى. ولعل هذا كان من أهم أسباب الانصراف عن ترجمة الشعر فى عصور التلاقح الفكرى والثقافى عبر الترجمة فى الفترة الباكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفى فترة بداية النهضة الأوربية وما صحبها من عمليات للترجمة.

فالثابت أن الترجمة فى مجالات العلوم الطبيعية والرياضيات والطب والهندسة والفلك... وما إلى ذلك، أيسر كثيراً من ترجمة الأفكار والمعانى والآراء والإبداعات التى تحملها العلوم الإنسانية والاجتماعية على اختلافها، فلم يترجم العرب تواريخ القدماء، وإن اقتبسوا منها، ولم يحاول الأوربيون ترجمة التواريخ العربية القديمة فى فترة النهضة، وإنما جاءت ترجمة هذه التواريخ فى فترة لاحقة لخدمة الأهداف الاستعمارية والتبشيرية. بل إن الترجمات التى جاءت فى هذا المجال لم تستطع أبداً أن تقترب من النص الأصلى (قارن ما جرى فى ترجمات ألف ليلة وليلة مثلا).

وعلى الرغم من أن الدراسات التاريخية قد تطورت كثيراً بحيث تخطت هذه المحاذير بفضل إنجازات العلم لتاريخى فى القرن التاسع عشر، وفى القرن العشرين. وعلى الرغم من أن هذا التطور قد تمَّ بفضل الباحثين والمؤرخين الغربيين بشكل جوهرى؛ فإن مشكلة الترجمات الأوربية للمصادر التاريخية العربية – مع التسليم بالدقة البالغة لكثير من هذه الترجمات – تتضح من خلال عدم فهم السياق النفسى والفكرى لبعض النصوص أحيانا، أو محاولة وضعها قسراً فى السياق الفكرى الغربى تارة أخرى.

وعلى الضفة الأخرى، تبدو الترجمات العربية للمصادر التاريخية الأوربية غريبة بشكل يستوجب من المترجم الفاهم إضافة الكثيرة من الشروح والحواشى؛ ومع هذا فإن قراءة النص الأصلى إلى جانب النص المترجم تكشف عن "خيانة الترجمة" فى كثير من الأحيان. وفى عدد من الأمثلة كانت الترجمة عملية شاقة ومضنية حقاً، ولكن عائدها كان متواضعاً لأسباب عديدة. فترجمة نص من العصور الوسطى مثلا عن الإقطاع يمكن أن ينقل المعنى الحرفى، وأن ينقل معانى المصطلحات، ولكنه حتما سيفقد ذلك الإحساس بالسياق الثقافى الذى كتب فيه النص،

وسيفقد الشعور بالجمهور الذى كان يستهدفه النص، ومدى تداخل علاقات المجتمع الإقطاعى آنذاك بالسيطرة الكاثوليكية، ونفوذ الرهبان، وتعصب الفلاحين الأميين، وذلك المزيج المدهش من التدين الشكلى والقسوة الوحشية التى ميزت السادة الإقطاعيين فى أوربا العصور الوسطى، ولا يمكن للمترجم أن ينقل "جَوّ" النص على حين ينجح فى نقل معناه إلى القارئ فى لغة الترجمة. وهنا نجد أن "النص" التاريخى المترجم يحمل المعلومات فى لغة مجردة، ولا يمكن لأى لغة أن تعبر عن جمال لغة أخرى؛ إذ إن لكل لغة "جمالها" الخاص بها. ومن ثم، يكون من الضرورى اللجوء إلى كتابات الباحثين والمؤرخين الذين ينتمون إلى التراث الثقافى الذى جاء منه "النص التاريخى" من أجل فهم النص بصورة أفضل. ويعنى هذا أن المترجم الذى يتصدى لترجمة أحد "النصوص التاريخية" فى تاريخ أوربا العصور الوسطى، أو فى تاريخ الحركة الصليبية، مثلا، سيجد نفسه مضطراً لقراءة دراسات الباحثين الأوربيين المتخصصين "لإضاءة" النص وفهمه. فالنص التاريخى لا يمكن فهمه بذاته، وإنما لابد من قراءته وفهمه فى سياقه الثقافى والاجتماعى والنفسى. ولذلك فإن ترجمة مثل هذه "النصوص التاريخية" لابد أن تتم على أيدى متخصصين فى مجالها، ولابد أن تحمل قدراً كبيراً من الهوامش لشرح النص وتفسير غوامضه. فلكل لغة منطقها وخلفيتها الثقافية وميراثها الذى لا يمكن نقله إلى لغة غيرها.

وإذا كان مسموحا لى أن أتحدث عن تجربة شخصية فى هذا المجال، فإننى ينبغى بداية أن أشير إلى تجربتى فى ترجمة أحد "النصوص التاريخية"؛ وهو النص الذى كتبه "فوشيه الشارترى" Fulcehr de Chartres ، الذى كان أسقفا كاثوليكيا، وشارك فى الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) وكان شاهد عيان على كثير من أحداثها، كما أنه كان واحداً من المستوطنين الصليبيين على أرض فلسطين، وكتب عن الاستيطان الصليبى فى السنوات الخمس والعشرين الأولى من هذا الاستيطان. وعلى الرغم من أننى ترجمت عدداً من الدراسات الحديثة فى تاريخ العصور الوسطى فإن تجربة ترجمة "نص تاريخى" كانت مختلفة تماماً، وصعبة. ذلك أن كتاب "فوشيه" كان يخاطب جمهوراً من القراء والسامعين على دراية بما كان يجرى فى أوربا قبيل خروج الحملة الصليبية، وكان ذلك الجمهور جزءاً من السياق الاجتماعى والثقافى والنفسى فى أوربا آنذاك. ولم يكن ممكناً أن يخرج "فوشيه الشارترى" عن موروثه الثقافى العام من ناحية، وبنائه الفكرى باعتباره من رجال الكنيسة الكاثوليكية من ناحية أخرى. ومن ثم ، فإن لغة الكتاب، التى تتخللها اقتباسات كثيرة من الكتاب المقدس، تحتفظ "بروحها" الخاصة التى لا يمكن نقلها إلى لغة أخرى تحمل موروثا ثقافيا مختلفاً.

ولم يكن ممكنا بالنسبة لى أن افهم "روح" النص الذى أقوم بترجمته، دون تلك الخلفية العلمية التى استندت إليها أثناء الترجمة، والتى توفرت لى بسبب تخصصى فى دراسة العصور

الوسطى عامة، وتاريخ الحركة الصليبية خاصة، على مدى حوالى عشرين سنة. وعلى الرغم من هذا، فإننى اعترف بأننى بينما نجحت فى نقل معنى نص "فوشيه الشارترى"، والمعلومات التاريخية التى تضمها صفحات هذا النص؛ فإننى لم أنجح تماماً فى نقل روح النص "والجو" التاريخى الذى وُلد فيه. وهو أمر يمكن التأكيد عليه من خلال الترجمات الأجنبية للنصوص التاريخية العربية، فلو أنك قرأت ترجمة بالإنجليزية للطبرى مثلا، فسوف تصدمك حقيقة أن الترجمة قد قتلت النص، وحولته إلى نص يتحدث عن المعلومات والأحداث، على الرغم من دقة الترجمة... وهنا تتجلى "خيانة الترجمة".

ولا يعنى هذا بأى حال من الأحوال أن تكف عن ترجمة "النصوص التاريخية الأصلية"؛ فإن هذا أمر لم يخطر لى على بال. ولكن المقصود هنا أنه يجب أن يكون من يتصدى لترجمة "النصوص التاريخية الأصلية" من المتخصصين العارفين بمجال الكتاب الذى يتصدون لترجمته، ولأنه ليست هناك "لغة تاريخية"، أو "لغة اجتماعية" أو "لغة انثروبولوجية"، مثلا، ولأن اللغة تستوعب كافة التخصصات وتعبر عنها، فإن المترجم الذى يعرف اللغة وحدها ولا يعرف التخصص الذى تحتضنه، لابد وأن يفشل فى عمله، ومن ناحية أخرى، يجب الأخذ فى الاعتبار دائماً أن النصوص التاريخية الأصلية تفقد الكثير من "روحها" بعد الترجمة. ومن ثم فإن الدراسات الحديثة تظل بمثابة المصابيح الإضافية التى تساعد على إضاءة "النص التاريخى" لاسيما إذا كان الباحث، أو الباحثون، الذين يقومون بها من أبناء الثقافة التى ينتمى إليها النص. وفى كثير من الأحيان تعتبر مثل تلك النصوص التاريخية مستودعاً للمعلومات.

بيد أن الأمر يختلف اختلافا جذريا عند ترجمة "الدراسات التاريخية الحديثة"(*) ويمكن تفسير هذه الحقيقة فى ضوء عدد من الأسباب الجوهرية؛ وأول هذه الأسباب أن الدراسات التاريخية الحديثة تدين بالفضل لجهود المؤرخين والباحثين الأوروبيين والكنديين والأمريكيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين. وهو ما يعنى أن الباحثين والمؤرخين فى العصر الحديث يعملون جميعاً على أرضية مشتركة؛ سواء من حيث المنهج، أو أساليب البحث التاريخى، أو تقسيم العصور التاريخية (العصور القديمة، والوسطى، والحديثة)؛ ومن حيث مفهوم وظيفة التاريخ الثقافية الاجتماعية وتحولها من السرد لحكاية "ماذا" حدث إلى البحث عن السببية ومحاولة فهم "لماذا" حدث ما حدث، ثم تحولها فى العقدين الأخيرين إلى البحث عن "معنى" ما

(*) إذ أن المترجم المتخصص لن يواجه مشكلة "روح النص" التى يواجهها من يترجم نصاً كتب فى العصور الوسطى، أو شاهد عيان فى حملة صليبية، أو من يترجم نصا ينتمى إلى العصور القديمة، أو عصر النهضة، مثلا.

حدث. ومن ناحية أخرى، فإن جميع نظريات "فلسفة التاريخ" كانت من إنتاج الثقافة الغربية بشكل أو بآخر، وقد أفاد الباحثون العاملون فى مجال التاريخ على اتساع الدنيا من هذه الجهود.

ومع تسارع وسائل الاتصال والمواصلات، وتقدم تكنولوجيا المعلومات، اختفت "الروح" التى ميزت النصوص التاريخية الأصلية، فى العصور القديمة والعصور الوسطى؛ وبواكير العصر الحديث. ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن المؤرخين والباحثين باتوا يتحركون على أرضية واحدة مشتركة ويتحدثون "لغة تاريخية" واحدة على اختلاف ألسنتهم الوطنية، لقد تحققت "العولمة" فى مجال الفكر التاريخى والدراسات التاريخية على نحو غير مسبوق. وقد عزز من هذا الاتجاه تلاشى "المركزية الأوربية" بسبب حركات التحرر الوطنى التى شهدها القرن العشرون بعد الحرب العالمية الثانية، وما أدت إليه من رغبة فى البحث عن التواريخ الوطنية من ناحية، وإدراك المؤرخين على جانبى المحيط الأطلنطى لزيف مزاعم "المركزية الأوربية" من ناحية أخرى. وعلى الرغم مما يبدو من تناقض ظاهرى فى هذه الحقائق، فإن الواقع أن "التواريخ الوطنية" لم تقف حائلا أمام الفكر التاريخى العالمى، وإنما أفادت من إنجازاته كما أسهمت فى تطوره. وقد سهَّل هذا عمليات التفاعل الفكرى والتلاقح المعرفى والعلمى بالشكل الذى أدى إلى وجود نوع من "المعرفة العلمية" فى مجال الدراسات التاريخية سيرَّت سُبُل التعاون العلمى فى هذا المجال من خلال المؤتمرات والندوات الدولية، ومن خلال شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)؛ ومن خلال الترجمة. ومع هذا بقيت الدراسات التاريخية "الوطنية" ولكنها لم تعد بمعزل عن التطورات العلمية العالمية كما كان الحال قديما.

ولكن ترجمة الدراسات التاريخية الحديثة تستوجب أيضا أن يكون المترجم متخصصاً فى الموضوع الذى يترجمه، وليس بوسع من يعرف اللغتين (المنقول منها والمنقول إليها) مهما كانت درجة إتقانه لهما أن يقوم بعملية ترجمة صحيحة إلا إذا كان من أهل التخصص وفى مجال الدراسات التاريخية هناك مصطلحات كثيرة يتَّفق عليها المتخصصون فى العصور التاريخية المختلفة وفى الحضارات المختلفة أيضا. ولاشك فى أن الترجمات التى قام بها مترجمون غير متخصصين قد شابها كثير من النقص والعوار، وسوء الفهم الذى ينقل إلى القارئ نصا مشوشا مرتبكا؛ ولعل هذا هو السبب فى أن الكثير من الأساتذة ينصحون تلاميذهم بقراءة النص الأصلى بدلاً من النص المترجم (الذى يحتاج إلى ترجمة أخرى لكى يصير مفهوماً). ومن خلال تجربتى الشخصية فى ترجمة بعض الدراسات التاريخية لاحظت أن كل باحث من العاملين فى تاريخ العصور الوسطى، مثلاً، يكتب وكأنه يخاطب أهله أو "جماعته"؛ فالمصطلحات المشتركة، والإشارات إلى حوادث أخرى مشهورة ومعروفة، والأساليب البحثية التى تناسب هذا التخصص أكثر من غيره، والشخصيات التى ترد أسماؤها وكأنهم أصدقاء أو

معارف، فضلا عن أسماء الأماكن الجغرافية – كل هذا بمثابة سياج يحول دون دخول "الغرباء" إلى حقل العصور الوسطى . فإذا غامر واقتحم هذا الحقل كان عليه أن يكسر هذا السياج، وأن يوضح للجميع أنه من الغرباء. وسنجد فى ترجمات "الغرباء" عبارات مضحكة، وصياغات سخيفة للأسماء والمصطلحات، بل إن النص المترجم سوف يكشف بالضرورة عن "غربة" المترجم عن النص، وستكون لغته مضحكة مثل لغة سائح يحاول تقليد قوم فى بلادهم.

وإذا كان من الصعب على غير الأطباء فهم المصطلحات الطبية؛ فإن هذه الحقيقة تصدق تماماً على الدراسات التاريخية، كما تصدق على أى فرع آخر من فروع العلم والمعرفة. ويقودنا هذا، بالضرورة، إلى ما يمكن اعتباره "توصيات" فى مجال ترجمة البحوث والدراسات، فضلا عن النصوص التاريخية الأصلية مع الأخذ فى الاعتبار أن الترجمة بشكل عام عمل يتطلب إعداداً علمياً منظماً؛ ثم تأتى مرحلة الترجمة المتخصصة التى تستوجب التخصص فى مجال الدراسة التاريخية إلى جانب القدرة اللغوية الممتازة؛ إذ يجب تدريب بعض المتخصصين فى فرع ما من فروع العلم التاريخى على الأسس المنهجية للترجمة. وربما يكون مفيداً فى هذا المجال وضع نوع من المعاجم والقواميس المتخصصة فى الدراسات التاريخية مثلما يحدث فى مجالات علمية أخرى. وربما يكون مفيداً أيضا إعداد برامج ودورات تدريبية للترجمة المتخصصة. ومن البديهى أن ما نقوله عن الدراسات التاريخية يمكن أن ينسحب بسهولة على فروع الدراسات الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

ومع هذا تبقى حقيقة أكيدة فى مجال الترجمة عموما؛ مؤداها أن الترجمة عمل لا يمكن أن يقوم به غير الموهوبين؛ فالموهبة أساسية، والتدريب والممارسة والخبرة أمور يمكن اكتسابها بمرور الزمن، والخلاصة أن الترجمة علم وموهبة، علم بالتخصص الذى تتم الترجمة فى مجاله، وموهبة تجعل مترجماً يتميز عن غيره من المترجمين.